اللا شعورية الرمزية في البنيوية اللغوية

م.م. نوزاد عبدالله محمدسعيد

وزارة التربية/ مديرية تربية نينوى

nawzadam2@gmail.com

الملخّص:

يتناول هذا البحث موضوع اللاشعورية الرمزية في البنيوية اللغوية، بوصفه تقاطعاً بين علم النفس وفلسفة اللغة واللسانيات، ينطلق البحث من مفهوم اللاشعور كما صاغه فرويد باعتباره مخزون الرغبات والذكريات المكبوتة، ويتقاطع مع وظيفة الرمز الذي يُعَد أداة وسيطة للتعبير عن الأفكار والحقائق، ويبرز دور البنيوية اللغوية، خاصةً مع فرديناند دي سوسير، الذي نظر إلى اللغة بوصفها نسقاً من العلامات، لا تكتسب معناها إلا من خلال موقعها داخل النظام الكلي.

ويناقش البحث كيف تتحول اللغة إلى أداة لاشعورية رمزية، إذ تكشف عن أعماق النفس الإنسانية عبر بنيتها وعلاقاتها الداخلية، كما يوضح أثر التحليل النفسي الفرويدي، إذ اعتُبرت الأحلام مثالاً على اللغة الرمزية للاشعور، ثم يستوقف البحث إسهام جاك لاكان الذي أعاد قراءة اللاشعور من منظور بنيوي، مؤكّداً أنّ اللاشعور منظم كبنية لغوية، وأنه خطاب الآخر، كما بيّن لاكان ثلاثيته المشهورة: الرمزي، والخيالي، والواقعي، التي تُبرز علاقة اللغة بالذات والعالم.

وينتهي البحث إلى أن اللغة ليست مجرد وسيلة للتواصل، بل هي بنية رمزية متجذّرة في اللا شعور، تمثّل أفقاً مشتركاً لفهم التجربة الإنسانية، وتكشف عن التداخل العميق بين الفكر والرمز والبنية.

الكلمات المفتاحية: اللاشعور، الرمزية، البنيوية، فلسفة اللغة.

The Symbolic Unconscious in Structural Linguistics

Abstract:

This study explores the symbolic unconscious within structural linguistics, highlighting its intersection with psychology, philosophy of language, and linguistics. It begins with Freud's conception of the unconscious as a

repository of repressed desires and memories, and links it to the function of symbols as mediating tools for expressing ideas and realities. Structural linguistics, particularly in Ferdinand de Saussure's theory, is emphasized as viewing language as a system of interrelated signs whose meaning derives only from their position within the whole system.

The research investigates how language becomes a symbolic unconscious medium that reveals the depths of the human psyche through its structures and internal relations. It further demonstrates the impact of Freudian psychoanalysis, where dreams exemplify the symbolic language of the unconscious. The study then turns to Jacques Lacan, who reinterpreted the unconscious through a structuralist lens, asserting that the unconscious is structured like a language and represents the discourse of the "Other." Lacan's triad of the symbolic, the imaginary, and the real is also examined as a framework for understanding the relationship between language, the self, and reality.

Ultimately, the research concludes that language is not merely a communicative tool but a symbolic structure rooted in the unconscious, providing a universal horizon for understanding human experience and revealing the deep interplay between thought, symbol, and structure.

Keywords: Unconscious, Symbolism, Structuralism, Philosophy of Language.

المقدمة:

يشكل اللاشعور بمفهومه المعاصر أحد أهم اكتشافات القرن العشرين, إذْ دخل في أغلب المجالات والدراسات المعاصرة لما له من أثر ومدلولات كثيرة منذ أن ذاع صيته للوهلة الأولى على يد عالم النفس الشهير (سيغموند فرويد)، فنجد هذا المصطلح في الدراسات السياسية والإجتماعية والفلسفية وعلم اللغة، إضافة إلى مجاله الأم علم النفس، وهذا ما دفعنا إلى اختياره للبحث والتقصّي من خلال علاقته بفلسفة اللغة، واللسانيات المتمثّلة بالبنيوية، والعلامات كتأثير وتأثّر، باحثين في أعماق النفس الإنسانية عن أسرار اللغة والكلمات التي تتوغّل في داخل النفس من خلال مكوناتها اللاشعورية، بمعنى أن هذه الدراسة تجمع كل من علم النفس وفلسفة اللغة واللسانيات حول مصطلح اللاشعور، آملين الوصول إلى إجابات مقنعة حول مجموعة من الأسئلة المتعلّقة بهذا المصطلح والتي يمكن صياغتها كما يلي: كيف تكون اللغة لاشعورية؟ ومتى ذلك؟ وما مراحلها ومجالاتها؟ وما علاقتها بالبنية والرموز؟

أولاً: المفاهيم اللغوية والإصطلاحية

١ــ اللاشعور: الحالات العقلية التي عاشها الفرد، والتي لا يمكن استردادها إلا بطرقٍ وحالاتٍ خاصة، "في

النظريات المثالية هو اصطلاح يعني منطقة خاصة في النشاط النفسي تتركّز فيها رغبات ودوافع وأماني خالدة لا تتغير، تحددها غرائز غير مفهومة للشعور، وقد ظهرت في أكمل صورها في الفرويدية، التي قسمت النفس إلى ثلاث طبقات: اللاشعور، ما تحت الشعور، والشعور" (روزنتال وآخرون، بلا ت، ص٤٠٢).

بمعنى أنّ اللاشعور هو مجموعة الظواهر النفسية التي يتعذّر الوصول إليها مؤقتًا أو نهائيًا للشعور، مثال ذلك فإن ذكريات طفولتي، أو ذكريات ما قبل عامين، ليست حاضرة لي الآن، على الأقل ليس بشكل مستمر، لكن يمكنني استرجاعها للشعور بجهد من الذاكرة، أو حتى بالصدفة، فإذا رأيت صورة على سبيل المثال هذا يذكرني بزمنٍ ماضٍ من حياتي، إلى جانب ذكرياتي، لدي مجموعة من العادات وردود الفعل وما إلى ذلك: يسمي فرويد هذا اللا شعور المؤقت، أي المتاح بسهولة إلى حد ما، فإن مصطلح اللا شعور مخصّص للتمثيلات (أي الأفكار أو الصور أو الآثار في الذاكرة) التي تكون بعيدة المنال بشكل دائم، وترتبط هذه التمثيلات ارتباطًا وثيقًا بالدوافع الأساسية، أي الاتجاهات الرئيسية أو (الدوافع) والتي يمكن اختزالها إلى نوعين: الدوافع الجنسية ومحركات الحفاظ على الذات، ومحركات الآخر (Haar, n.d, P6).

واللاشعور يمثل البُعد الذي تُخزّن فيه الرغبات والدوافع والأحداث التي لم ينجح الإنسان في تحقيقها أو التعامل معها في الماضي، فهو لا ينسى ما مرّ به الفرد كما قد يظن البعض، بل يكتمه في فضاء داخلي يشكل جزءاً جوهرياً من الحياة النفسية، ومن هذا المنطلق، يُعد اللاشعور المخزن الذي يحوي كل ما يبذله الجهاز النفسي من ردود أفعال ورغبات ودوافع، مقدماً بذلك فهماً متكاملاً لتجربة الإنسان الداخلية وعمق وجوده النفسي، ولقد فرّق (فرويد) بين القبشعور (قبل الشعور) والذي يكون استدعائه سهلاً، واللاشعور المتّصل بعالم المكبوت، إذْ أنّ جوهر عملية الكبت لا تتشكّل في الغاء أو تدمير التمثّلات الفكرية للدوافع الغريزية، بل في منعه من أن يصبح شعورياً (طه وآخرون، بلا ت، ص٣٨٢).

٢ــ الرمزية: الرمز: هو الموضوع أو التعبير أو النشاط الاستجابي الذي يحل محل غيره ويصبح بديلاً عنه، كما انّه يعد علامة اصطلاحية تستعمل استعمالاً مضطرداً لتمثّل مجموعة من الأشياء أو نوعاً من أنواع العلاقات الرياضية، كالمنطق الرياضي مثلاً (الخازن، بلا ت، ص١٤). أي أنه علامة تحيل على موضوع وتسجّله طبقاً لقانون ما (علوش، ١٩٨٥م، ص١٠١).

وفي معناه العام يُعرف الرمز بأنه أيّ شيء يشير إلى شيء آخر، أو يقوم مقامه ويدل عليه، فهو يرتبط

بالموضوع الذي نسعى لفهم فكرته والكشف عن معناه من جهة، ومن جهة أخرى، يُستخدم المصطلح للإشارة إلى موضوع مرئي يمثل تشابهاً غير مرئي، كما هو الحال في الكلمات التي تُعد رموزاً، إذ يسعى الإنسان من خلالها إلى التعبير عن المعاني التي تهمه ونقلها للآخرين، ما يجعل من اللغة وسيلة لفهم التجربة الإنسانية وإيصال الدلالات الفكرية والعاطفية عبر الإشارات الرمزية (طه وآخرون، بلا ت، ص٢١٥)، بمعنى أن الرمز في الجهد التنظيري الفلسفي يمثّل محاولة لوضع قانون عام في ضوئه يمكننا تقسيم الظواهر السلوكية للإنسان، ومعرفة آليات تطوّره الفكري، كما أنّه يهدف في الوصول إلى نظرية ابستيمولوجية (معرفية) عن الإنسان ومحيطه الخارجي(عاتي، ٢٠١٥م، ص٣٧,٣٦)، ويرى (كاسيرر) في كتابه (مقال في الإنسان ــ أو ــ مدخل إلى فلسفة الحضارة الإنسانية) فالرمز، بصفته مبدأً، هي الكلمة السحرية التي ينقلها الإنسان لتتجسد في العالم الإنساني والحضارة، لتصبح وسيطاً للتقدم يتجاوز حدود الحواس المادية، ويبرز هذا المفهوم من خلال مثال (هيلين كيلر)، العمياء والصماء، للدلالة على أن الإنسان في جوهره كائن رمزي، قادر على تجاوز المألوف عبر المعنى، كما يرى الرمز ليس فقط شاملاً، بل متنوعاً بعمق، وهو ما يميّزه عن الإشارة أو العلامة التي ترتبط بالموضوع ارتباطاً ثابتاً لا يتعدد، ما يعكس قدرة الإنسان على الإبداع في تمثيل الخبرة والمعاني ضمن فضاء ثقافي وحضاري غني (طه وآخرون، بلا ت، ص٢١٥)، ومن ناحية أخرى يرى (كاسيرر) في محاولة توضيحه لوظيفة اللغة بالقول: "من هنا فإن العالم الجديد من العلامات اللغوية تكسب عالم الانطباعات الحسية إستمراراً داخلياً جديداً ذلك لإنّه يكتسب وحدة عقلية جديدة" (Cassirer, 1955, P120).

ومن هنا تعد اللغة أداة من أدوات الروح الانسانية التي تتقدم عن طريقها من عالم الإحساسات المجردة إلى عالم ومن الحدوس والافكار.

فاالرموز اللغوية تقودنا إلى تحقيق موضوعية الانطباعات الحسية، أما الرموز الاسطورية فهي تؤدي إلى تحقيق موضوعية المشاعر الذاتية ومن هنا كانت وظيفة العوالم الرمزية عند كاسيرر، إذ يقول فيها : "لايستطيع الإنسان شيئا من اللغة والدين والفن والعلم سوى أن يبنى عالمه الرمزي، أو العالم الرمزي الذي يمكّنه من أن يفهم التجربة الإنسانية ويفسّرها ويفصح عنها وينظّمها ويمنحها صفة كلية" (Cassirer, 1955, P79).

كما أن هناك فرق بين الرمز الرياضي الرمز اللغوي، فالأول قد يساعد على فهمه ما هو ثابت فيه، فمن المعقول أن يفهم (١) كواحد عندما يكون هناك إثنان من

الرمز نفسه (١١) أو ثلاثة (١١١)، أما الرمز (+) أو (=) فقد يكونان نسبيي المعنى، لكنهما يكتسبان المعنى المحدد عندما نضعهما في معادلة من قبيل (١+١١=١١١)، أما الرمز اللغوي فإنه يظل مجهول المعنى ما لم يكن هناك أحد يعرفه أو أن يوجد في ترابط ما مع نص آخر بلغة أخرى معروفة أو نظام اتصال آخر، يوازيه في المعنى، كما حدث الأمر في عام ١٧٩٩م مع حجر رشيد الذي ساعد على فك أسرار اللغة الهيروغليفية لأن النصوص التي كانت موجودة عليه كُتبت بالديموطقية واليونانية والهيروغليفية، وحتى هنا يجب أن ننتبه إلى أنّ النص والرموز في هذه الحالة أصبحت معروفة بفضل النص الآخر (دون أن يوجد أحد يعرف الهيروغليفية)، لأنّ الأمر فيما يتعلق بالهيروغليفية يدور عن رموز كانت فيها هناك علاقة قوية بين الرمز والمرموز إليه، ولو أنّ بعض العلماء الأمريكيين وجدوا اليوم نصاً بلغةٍ من لغات الهنود الحمر المندثرة منقوشاً على صخرة في فيلادلفيا ومعه ترجمة بالعربية، فإن هؤلاء العلماء سيستعينون بمن يعرف اللغة العربية فيكون لغز المضمون في تلك اللغة دون أن تكون لهم أدنى فكرة عن العربية (ظاهر، ٢٠٠٨م، ص٣٤).

والرمز في معناه الواسع في التحليل النفسي، إنما هو أسلوب يقوم على التصوير المجازي وغير المباشر لفكرة أو صراع أو رغبة كامنة في اللا شعور، إذ يتجسد المعنى عبر رمز يتجاوز التعبير المباشر، وفي هذا الأفق الواسع، يغدو كل تكوين بديل بمثابة تمثيل رمزي يعكس دينامية النفس الإنسانية وما تختزنه من توترات ورغبات خفية (طه وآخرون، بلا ت، ص٢١٦). وهذا يعني بأنّ "الرمزية هي الوساطة الكونية للفكر وبيننا وبين الواقع، إنها تعبّر قبل كل شيء عن لا مباشرية فهمنا للواقع... الرمزية تحدّد القاسم المشترك لكل طرق إعطاء معنى للواقع" (الناصر، ٢٠٠٧م، ص٧٧).

والرمزية فهي خاصية أولية من خصائص العقل، إذْ تبرز في كل اشكال التفكير وفروع الثقافة (شيفلر، ٢٠١٦م، ص١١)، فالرمزية تمثّل شكلاً من أشكال التعبير التي توظف الرمز أداةً لتمثيل الأفكار والكشف عن الحقائق، إذ تُربط الدلالة بمعنى محدد يمنح الخطاب وضوحه واتساقه، ومن جهة أخرى، ارتبطت الرمزية بالتيار الفني الذي نشأ في فرنسا أواخر القرن التاسع عشر، والذي تميز باستدعاء الأفكار واستحضار الأشياء من خلال الرموز والصور دون تسميتها مباشرة، في محاولة لفتح أفق جمالي يتجاوز حدود التعبير المباشر نحو فضاء أكثر عمقاً وإيحاءً بالخبرة الإنسانية، كما أنّها تعد مذهب فلسفي أدبي يعبِّر عن تجارب فلسفية وأدبية مختلفة عن طريق الإشارة والرمز والتلميح (الجهني، ١٤١٨هـ، ص٨٦٤)، وارتبطت الرمزية

بوعي مؤسّسيها وبُناتها، والمهتمّين بها، إذْ خلقت لنفسها رؤية فلسفية عن الوجود، واتخذت من اللغة المادة الأساسية في تشكيلها، لذلك تعد حركة روحية ميتافيزيقية (عاتي، ٢٠١٥م، ص٣٤،٣٣).

٣ــ البنيوية: هي منهجٌ بحثْ وطريقةٌ مُحدّدة يتطرّقُ الباحث من خلالِها إلى المعطيات التي تنتمي إلى ميدانٍ معيّن من ميادينِ المعرفة بحيث تخضعُ هذه المعطيات إلى المعاييرِ العقلية، وإنَّ دراسة أي ضرب من الوقائعِ يجبُ أن يتمُّ عن طريقِ التعرّف على بنيتِه، وخاصةً ما يتعلّقُ منها بالوقائعِ النفسانية واللسانية (يعقوبي، ١٩٩٨م، ص٢٠)، كما انّها تعد نظرية تصف البنيات، فتكون البنية بموجبها علاقات تطبّق على الموضوع الذي يجعلها واضحة (علوش، ١٩٨٥م، ص٥٣،٥٢).

والبنيوية في أصلِها تنظرُ إلى المشكلاتِ الفلسفية، من خلالِ المنطق العلمي، والبنيةُ اللغوية هي التي تفسّرُ جميع الظواهر بوصفِها نسقاً من علاماتٍ ورموز متداخلة، وهذا ما يؤكّده (ليفي شتراوس) بقولِه: "تظهرُ البنية أولاً بمظهرِ النسق، إنّها تتألّفُ من عناصرِ يكفي أن يطرأُ على أحدِها أدنى تغيير حتّى يتغيّرُ المجموع" (نقلا عن: سعيد، ٢٠٠٤م، ص٨١).

نشأتْ البنيوية بفضلِ بحث قدّمه مجموعة من اللغويين السلوفاك إلى المؤتمرِ الدولي الأول لعلماء اللسان الذي انعقد في لاهاي بهولندا سنة ١٩٢٨م، وأهمّهم (رومان ياكوبسن) Roman Jakobson (١٨٩٦ ـــ ١٩٨٢)م، (سيرجي تروبتسكي) Serge Troubetzkoi (١٨٦٢ ــ ١٩٠٥)م ، وغيرهما، ثم أصدروا بيان بعد ذلك أعلنوه في المؤتمرِ الأول للغويين السلوفاك الذي انعقدَ في براغ سنة ١٩٢٩م. (وهبة، ٢٠٠٧م، ص١٤٦).

وهكذا عرفَ القرن التاسع عشر انتشاراً للمنهج البنيوي في الدراسة العلمية للّغة في وقت محدّد ومعيّن، "وما إن أظل القرن العشرون حتى تغيّر وجه الدرس اللغوي، واتخذ له مساراً آخر، وكان للغوي السويسري دي سوسير الفضل الكبير في هذا التغير، فقد طلع على معاصريه بافكارٍ واتجاهاتٍ لغوية جديدة، صرفتهم عن الدراساتِ التاريخية والمقارنة، وجذبتْ اهتمامهم إلى دراسةِ لغاتِهم الحية، ليصفوا أصواتها ومفرداتها وتراكيبها، فيستنبطوا قواعدها وقوانينها" (العزاوي، ٢٠٠١م، ص٩٠).

فالبنيوية تقومُ "على أساسٍ نظريٍّ مؤداه أنّ البنية تتألف من عناصرٍ ومكوناتٍ جزئية، وأنّ أيَّ تغيُّرٍ يطرأُ على أيّ واحدٍ من هذه المكونات لا بُدَّ أن يؤثرَ في سائرِ المكونات والعناصر الأخرى" (استيتية، ٢٠٠٨م، ص١٦١).

وقدْ اتفق أغلب الباحثين في الدرسِ الفلسفي واللساني الحديث على أنّ اللسانيات البنيوية وفلسفتها قدْ انطلقتْ بشكلٍ فعلي مع ظهور الطبعةِ الأولى من (محاضراتِ دي سوسير)، واتفقوا أيضاً على عدمِ وجود بنيوية واحدة، "وانّما هناك بنيويات تختلفُ وتتعدّد بعددِ رجال الفكر البنيوي أنفسهم" (غلفان، ٢٠١٠م، ص٢٥٢). لذلك لا يمكنُ وصف البنيوية بأنّه تيارٌ متجانس، أو مذهبٌ موحّد، وهذا اعتقادٌ خاطيء "إذْ نلاحِظ تعدّداً في الرؤى، وتعدّداً في الأدوات، وتعدّداً في المفاهيمِ والمصطلحات، وتعدّداً في التطبيقِ والتحليل، وتعدّداً في المواقفِ والنتائج" (غلفان، ٢٠١٠م، ص٢٤٦).

وبما أنّ المنهج البنيوي قدْ تجاوز اللغويات ليشملَ معظم العلوم، فمن الممكن التمييزِ بين المنهج البنيوي، أو اللسانيات البنيوية، أو البنيوية كمجال عام، وبين البحث اللغوي الذي يستعمل هذا المنهج كأداة لدراسة الظواهر اللغوية؛ "لأنّ البنيوية، بمعناها الواسع، هي طريقةُ بحثٍ في الواقع، ليس في الأشياءِ الفردية، بل في العلاقاتِ بينها" (شولز، ١٩٨٤م، ص١٤).

ويمكننا القول بأنّ الاتجاه البنيوي لم ينشأ من المفهوم ذاته، بقدرِ ما ظهر في محاضرات دي سوسير كمنهجٍ جديد للتعاملِ مع الظواهر اللغوية، ومن الحقائقِ التي يجبُ أن نعترفَ بها أنّه يصعبُ عزل البنيوية في الدراساتِ اللسانية عن العلومِ الأخرى، وعن الاتجاه الذي توجدُ فيه العوامل التي أدّتْ إلى خلق هذا النوع من المنهجية، لذلك نجدُ أنّ البنيوية قدْ فتحتْ آفاقًا كثيرةً من خلالِ بحثِها في مجالاتٍ مختلفة من العلومِ الإنسانية، إذ "عرف الأدب المناهج البنيوية، وطبّقها، كما عرف النقدُ الأدبي التوليدية والبنيوية النقدية، وفي الانثروبولوجيا درستِ الأنثروبولوجيا البنيوية، والدراسة البنيوية للأسطورةِ، والأسلوبية النقدية، وفي علمِ الاجتماع نجدُ الدراسة البنيوية، والوظيفية، وفي علمِ السيميولوجيا، وعلمِ التحقيب اللغوي نجدُ دراسات متنوعة جادة" (كامل، ١٩٩٧م، ص٢٥١)، بمعنى إنّ البنيوية لم تعدْ منهجية "تقتصرُ على المجالِ اللساني وحده. بل تُبَنْيِنُ كلّ شيء، إذا جازَ لنا أن نستعملَ هذا التعبير، تُبَنْيِنُ المجتمع، واللا شعور، والثقافة، والأدب، والفكر، والسينما، والمسرح، والمطبخ، واللّباس، والإعلانات الإشهارية، وكلّ مرافق الحياة الاجتماعية، والسياسية، والفكرية، والاقتصادية" (غلفان، ٢٠١٠م، ص٢٤٥).

وعدّتِ المدرسة التي أطلق عليها (مدرسة جنيف)، وهي المدرسة اللسانية التي انطلق منها دي سوسير، وتلاميذه كلٌّ من (شارل بالي) و(سيشهاي)، "وهما اللذان طبعا محاضراته في الكتابِ الذي اشتهر به دي سوسير، اهتمّا بقضايا اللغة وتميزا بوجهةِ نظر، فقد

اختص (شارل بالي) في السنسكريتية واليونانية، وذلك بعد أن استوعبَ مفاهيمَ أستاذه دي سوسير وتمكّن من فهمِها، عني بدراسة الأسلوب وكان له دور بارز في إرساء الأسلوبية المعاصرة سنة ١٩٠٢م" (شنوقة، ٢٠٠٨م، ص٦٧).

اعتمدت اللسانيات منذ النشأة المنهج البنيوي، وهذا ما جعلها أمام مرحلةٍ جديدة من دراسةِ اللغات، إذْ "وجد ليفي شتراوس... في علم اللغة البنيوي نوعاً من الكشفِ الملهم، وتوقّع أن يحدثَ هذا الكشفُ ثورةً تتجاوزُ علم اللغة إلى الأنثروبولوجيا، بل تمتدُّ إلى كلِّ العلوم الإجتماعية، ولخّصَ أهمّية هذا الكشف بقولِه:

أولا: يتحوّلُ علم اللغة البنيوي عن دراسة ظواهرٍ لغوية واعية إلى دراسةِ بنيتِها التحتية اللاواعية.

ثانيا: لن يتعاملَ علم اللغة مع المسمّيات، أو الكلمات بوصفِها كيانات مستقلّة، بل يتعاملُ معها على أساسِ العلاقات التي تنتظمُها.

ثالثاً: يطرحُ علم اللغة مفهوم النسق... وأخيراً يهدفُ علم اللغة البنيوي إلى الكشفِ عن قوانين

كلية، سواء كان ذلك بالإستنباطِ أو الإستدلال، مما يعطي هذه القوانين صفة مطلقة" (كريزويل، ١٩٩٣م، ص٣٩،٤٠).

ثانياً: رمزية البنية اللغوية عند دي سوسير

لم يستعمل (دي سوسير)[1] كلمة البنية أو البنيوية في محاضراتِه، لكنّه استعملَ مضمونهما في تلك المحاضرات التي نُشرتْ بعد وفاته، "لم يستعملُ سوسير هذا المصطلح كما قلنا، ولكنّه تحدّث عن مضمونِه، وأول مرة استعملَ فيها هذا المصطلح، كانتْ في البيانِ الذي أعلنه المؤتمر الأول للّغويين السلوفاك سنة ١٩٢٩م. فقدْ ورد فيه مصطلح البنية بمضمونِه المعروف حتى اليوم... وقدْ دعا المؤتمر إلى تبني منهجٍ جديدٍ في دراسةِ اللغة سمّوه (المنهج البنيوي)" (استيتية، ٢٠٠٨م، ص١٦١).

وعرفتْ محاضرات دي سوسير منذ ظهورها مساراً متميزاً ومكانة مهمّة قلّما حظي بها عمل علمي آخر طوال القرن العشرين, ولا يختلفُ إثنان في أنّ ما تركه دي سوسير كان ولا يزال مرجعاً لا يمكنُ الاستغناء عنه في معظم الإشكالات التي ظهرت في القرن العشرين، في

---

[1]) فيرديناند دي سوسير **Ferdinand De Saussure** (١٨٥٧ ــ ١٩١٣)م: عالم لغوي سويسري، يعدُّ المؤسّس الحقيقي لعلمِ اللغة الحديث، وذلك بعد نشر كتابه (محاضرات في علم اللغة العام) المكوّن من سلسلة من محاضراته نشرها مجموعة من طلبته بعد وفاته، تنقّل بين جامعات جنيف، وليبرغ، ومعهد الدروس العليا في باريس، وأهم ما قام به دي سوسير هو تمييزه بين اللغة، والكلام (Jonathan and Urmson, 2005, P46).

مختلف الحقول المرتبطة بقضايا اللغة، ما تزال الدروس التي قدّمها دي سوسير، في سياقها التاريخي والفكري، تحتفظ براهنيتها النظرية والمنهجية، وتشكّل ركناً أساسياً في لسانيات القرن العشرين، وهو ما يفسّر استمرارها موضوعاً للعديد من الأبحاث والدراسات التي تجد طريقها المتواصل إلى النشر، "وقد كان لهذه الدروس في اللسانيات العامة دور حاسم في المسار الذي قطعته اللسانيات، حتى غدت أنموذجاً له قيمته المنهجية، والنظرية المتميزة في حقل العلوم الإنسانية" (غلفان، ٢٠١٣م، ص١٣٥).

ويرى دي سوسير بأنّ اللغة "ليستْ مدوّنة ولا نوعاً طبيعياً، اللغة نسقٌ حيثُ كلّ شيء يستقيمُ، ويعني بذلك أنّ أيُّ عنصرٍ لغوي لا يمكنُ تحديده خارج العناصر الأخرى" (أورو، ٢٠١٠م، ص٢٦).

لذلك يمكنُ عدّ اللّغة بأنّها المحور الأساس للدرسِ اللساني البنيوي، كونها موضوع الدراسة اللسانية الوحيد, واللغة ــ طبقا لكتابِ المحاضرات ــ يجبُ أن تدرسَ في نفسِها، ولا تتطلّبُ مسبقاً (ياكوبسن، ٢٠٠٢م، ص٣٣).

وتعدُّ اللغة هي الأنموذج المباشر للمنهج البنيوي لإسبابٍ ثلاثة، الأول: لأنّه يدرسُ موضوعاً عامّاً، فكلُّ مجتمعٍ بشري يوجد له لغة، والثاني: لأنّ منهجه متشابه، بمعنى إمكانية اتّباع نفس المنهج لدراسةِ أيةِ لغة كانتْ سواءً قديمة، أو حديثة، بدائيةٍ، أو متحضّرة، أمّا السبب الثالث: فلأنّ المنهج البنيوي يعتمدُ على المباديء الأساسية التي لا يمكنُ الإختلاف عليها من قِبلِ الباحثين والمتخصّصين (بغوره، ٢٠٠٢م، ص٤٨).

وكذلك نرى أنّ دي سوسير عدَّ اللسانيات العلم الذي يدرسُ اللّغة لنفسِها، وعرّف اللغة في قولِه: "فاللغة نظامٌ من الإشاراتِ التي تعبّرُ عن الأفكار" (دي سوسير، ١٩٨٥م، ص٣٤).

وهذا التعريف لم يكنْ مألوفاً؛ لأنّه يشتملُ على ثلاثةِ مستويات من النشاطِ اللغوي، والتي ركزّ دي سوسير على التمييزِ بينها وهي: اللغة، واللسان، والكلام، "فاللغةُ هي المظهرُ الواسع؛ لأنّها تشملُ كلّ الطاقة الإنسانية للكلام، جسدياً وفكرياً، أما اللسان فإنّه يعرفُ عن طريقِ سماتِه النظامية، إنّ اللسان هو لغة حسب اللفظ الإنكليزي أو الفرنسي، فاللسانُ نظامٌ من اللغةِ يستعمُله كلُّ واحدٍ منّا لتوليدِ المحادثة بشكلٍ واضح للآخرين، أما أقوالنا الخاصة فهي ما يسميه دي سوسير الكلام، فاللغة قدرةٌ لسانية، واللسانُ نظامٌ لغوي، والكلامُ قولٌ خاص" (شولز، ١٩٨٤م، ص٢٦)، لذا يمكننا القول بأنَّ الوظيفة الأساسية للّغةِ عند دي

سوسير، هي التواصل بين أفرادِ المجتمع لتلبيةِ الحاجات المختلفة التي تعبّر عن الأفكار.

ووفقاً لهذا التصوّر فإنَّ دي سوسير كانّ يشبّه نظام اللغة بلعبةِ الشطرنج، ويقاربُ بينهما، إذْ يقول: "في كلا المثالين نحن في مواجهة مع نظام من القيم، وتعديلاتها، أو تكيّفاتها الجديرة بالملاحظة، إنّ لعبة الشطرنج تشبه التحقّق الصناعي لما تقدّمه اللغة بشكلٍ طبيعي ... إنّ حالة مجموع رجال الشطرنج تتطابق تماماً مع حالة اللغة، تعتمد القيمة الخاصة للقطع على موضعها فوق رقعة الشطرنج، تماماً مثل كل مصطلح لغوي، وأخذ قيمته من تعارضه مع كل المصطلحات الأخرى ... فإنّ النظام لحظيٌّ دائماً، فهو يتغيّر من موضعٍ إلى آخر" (دي سوسير، ١٩٨٥م، ص١٥٦)، وخير مثالٍ على هذا التشابه هو كلمة (ماء) مثلاً، "يعتمدُ الحكمُ بكونِها اسماً أو أداةً أو فعلاً في لغةٍ بعينِها على المعنى المرتبط بالتتابعِ الصوتي (ماء) في هذه اللغة، ولكن صيغة الكلمة في ذاتِها لا تحدّدُ المعنى الواقعي للكلمة، إنّ كلّ كلمة هي وحدة من وحداتِ اللغة، لها موقعها المخصوص في إطار النظام، وهذا الموقع المخصوص هو الذي يحدّدُ معنى الكلمة" (إفيتش، ٢٠٠٠م، ص٢١٦).

ويميّزُ دي سوسير ــ إضافة إلى تمييزه بين اللغةِ، والكلام ــ بين الشكلِ، والجوهر، محدّداً تطبيق هذا التمييز كياناً مغلقاً من الحقائقِ العلمية، نظاماً لغوياً موضوعياً يفترضُ انفصاله من أي تفسير آخر، "فالإختلاف بين لغاتٍ مختلفة هو اختلافٌ في الشكل، اختلافٌ في الطريقةِ التي تقسّمُ بها المواد المشتركة تتابع الصوت والفكر في لغاتٍ مختلفة، لذا فإنّ اللسانيات تعنى فقط بالشكلِ وليس بمادةِ اللغة، الأخيرة مسألة لا أهمية لها بالنسبةِ لعالمِ اللغة" (كلارك، ٢٠١٥م ، ص١١٦)، وأشار دي سوسير إلى دور الصوت في تمثيل الماهيات النفسية في عملية التفاهم المتبادل، كما أشار أيضاً إلى أنّ أصوات اللغة هي إشارات تواصلية، لذلك يجب دراسته في ضوء هذه الحقيقة (إفيتش، ٢٠٠٠م، ص٣٢٤).

ومن أهم اسهامات دي سوسير في دراسته للغة البنيوية، "وكانتْ سبباً في صياغةِ المشروع البنيوي، ما يلي:

أ ــ اللغةُ نظامٌ، إذْ لا يُمكن تحليل الظواهر اللغوية بعزلها عن غيرِها، فهي أجزاءٌ في نسقٍ أكبر.

ب ــ اللغةُ ظاهرةٌ اجتماعية، وينبغي دراستُها على وفق هذا المبدأ، من دون اللجوءِ إلى معاييرٍ أخرى خارجةً عن مادتِها البنيوية (نفسية مثلاً)، أو عن طبيعتِها الإجتماعية (التاريخ مثلاً).

ج ــ التمييزُ بين ثنائيةِ اللسان، والكلام، وهو في الواقعِ تمييزٌ لما هو اجتماعيٌ في اللغةِ وخاضعٌ إلى نظامٍ عام، عمّا هو فردي ذاتي، لا تحكمُه قواعدٌ مشتركة.

دــ لا تحملُ أيّةُ علامة معنًى مستقلّاً بذاتِها، ما لم تكنْ داخل نظام، بل تستمدُّ معناها من النظامِ ككل، ومن الوحداتِ، والعلاماتِ الأخرى المجاورة لها في السياقِ نفسه.

ه ــ الدراسة التعاقبية (التاريخية) للّغة، ينبغي أن تُسبقَ بدراسةٍ تزامنية (آنية)؛ لأنّ النظام، والنسق الثابت يمكنُ فهمه أكثر من التغيير، فضلاً عن أنّ التغيير ناشيءٌ من ذلك النظام والنسق، مما يفرضُ على الدارسِ معرفة حالهُ أولاً، وهذا المبدأ خلّصَ اللغة من النزعةِ التاريخية التي هيمنتْ قبلهُ على دراستِها، فصارتْ قسمين: آنية وتاريخية" (بوجادي، ٢٠٠٩م، ص١٨، ٢٠).

وعلى هذا الأساس أصبح التمييزِ بين فكرٍ لساني قديم (تقليدي)، وفكرٍ لساني حديث، ومعاصر من أبرزِ إهتمامات الباحثين في مجال التفكير اللساني وتياراتها ومدارسها (المتوكل، ٢٠١٠م، ص١٢).

وتهتمُّ اللسانيات بدراسةِ الأدلةِ غير اللغوية إلى الدلائليةِ أو السيميائيات التي تهتمُّ بمعرفةِ العناصر التي تتشكّلُ منها الأدلة والقوانين التي تتحكّم فيها" (أوكان، ٢٠١١م، ص٧١).

فالعلامةُ عند دي سوسير "عنصرٌ من عناصرِ الجهازِ اللغوي، وهذه العلامة يسميها الوحدة اللسانية، وهي مكونةٌ من عنصرينِ يتصلانِ ببعضهما اتصالًا كاملًا، فهُما كوجهي الورقة يسمى أحدهما (الدال)، وهو الصورةُ السمعية التي يتضمّنُها الدليل أو العلامة، ويسمى الثاني (المدلول) وهو المتصوّرُ الذهني، ويسمى قديمًا المعنى، فليستِ العلامة هي الدال وحده، أو هي المدلول وحده وإنّما هما معاً، وبغيرِ هذا لا تكون، وبعبارةٍ أخرى: لا يمكنُ الفصلُ بينهما" (شنوقة، ٢٠٠٨م، ص٤٦، ٤٧)، وعلى هذا الأساس فاللغاتُ تكونُ علامات، وكلُّ علامةٍ هي دالًّا ومدلولًا، بمعنى الترابط بين المفهومِ والصورةِ السمعية.

فالدليلُ اللساني عند دي سوسير كيانٌ نفسيٌّ يربطُ بين تصوّرٍ ــ يسميه مدلولاً ــ وصورة إصغائية ــ يطلق عليه دالاً، فليس المدلولُ هو الشيء، وإنّما التمثّلُ النفسي للشيء، وكذلك الدالُ فهو ليس الصوتُ الفيزيائي المحض، بل الأثرُ النفسيُّ الذي يُحدثه الصوتُ، بحيث تتجلّى هذه الصفة النفسية للدالِ في اللغةِ الخاصة بنا، لذا فأنّه بإمكانِنا أن نستظهرَ مثلاً قصيدةً في عقولِنا من دونِ أن نحرّكَ أعضاء النطق المتمثّل

بالجهازِ المصوّت الخاص بنا (أوكان، ٢٠١١م، ص٧٢، ٧٣).

ويمكننا أن نعدَّ النسق من أهمّ المفاهيم التي استعانَ بها دي سوسير في تحقيقِ القطيعةِ مع التصوّرات التقليدية السابقة لطبيعةِ العلاقة القائمة بين العلامةِ اللغوية من جهة، والفكر والعالم من جهةٍ أخرى، إذْ تبلّور مفهوم النسق، في فكرِه السيميائي انطلاقاً من النقدِ الذي وجهَه إلى سابقيه ومعاصريه، وخاصةً تصوّر أولئك للألسنِ البشرية كمدوّناتٍ من المفردات، "ويعد تصوّر اللسان مدونة من مفرداتٍ تحيلُ إلى عالمٍ خارجي من بين التصوّرات التي ورثتْها اللسانيات الحديثة عن أرسطو وقواعد بور رويال" (زواوي، ٢٠١٧م، ص١٧٤)، فلا ينفصلُ مفهوم النسق عند دي سوسير عن مفهومِ الشكل، ولا ينفصلُ أيضاً عن مفهومِ القيمة، وإنّما كلّ واحد منها يستدعي الآخر دائماً، ذلك لأنّ النسق هو نسقٌ من العلاماتِ، كما أنّه في الوقتِ نفسه، نسقٌ من القيم، إذْ يقول: "إنّ القيم التي يتألّفُ من نسقِ اللسان أساساً، أو أيّ نسقٍ من الإشارات، لا تتمثّلُ في الأشكالِ ولا في المعاني، ولا تتمثّلُ في العلاماتِ، ولا في الدلالات، إنّما تتمثّلُ في نسبةٍ عامة قائمة بين العلاماتِ والدلالات، نسبةٌ قائمة هي الأخرى على الإختلاف العام القائم بين العلاماتِ فيما بينها من جهة، وبين الاختلافِ العام القائم بين الدلالات فيما بينها" (زواوي، ٢٠١٧م، ص١٧٧، ١٧٨).

وبناءً على ما قدّمه دي سوسير من أفكارٍ وآراء كان لها صدًى واسعاً، بل كانتْ هي السبب الرئيس في "نشأة عدد من المدارسِ اللغوية ذواتِ المناهج المختلفة، كمدرسة براغ، ومدرسة كوبنهاغن، والمدرسة الفرنسية، وكانتْ بداية الدراسات الأوروبية في ظلِّ لغاتٍ قديمة لها آداب مشهورة مدروسة دراسة واسعة، وعميقة. أما في أمريكا... ارتبطتْ دراساتهم بالبحث في المبنى من دون الخوض في المعنى" (حسان، ١٩٨٤م، ص١٣٠).

وكانتْ هذه هي أهم المدارس، والاتجاهات، في استخدامِ المنهج البنيوي، في البحثِ اللغوي، ولا شك في أنّ العديد من المصطلحاتِ، والمفاهيم، والأفكار، والآراء، قدْ تكوّنتْ من خلالِ الدراسات، والملاحظات، والتأملات الفكرية، ذوات الخلفية الفلسفية، لذا اعتبرت اتجاهاً أساسياً ورافداً مؤثراً في مبحثِ فلسفة اللغة، وتجدرُ الإشارة إلى أنّ العديد من الدراساتِ قدْ استفادتْ من نتائجِ هذه المدارس، في تصميمِ نظرياتٍ جديدة، بينما ساهمتْ دراساتٌ أخرى في إنشاءِ، وتطويرِ، وتراكمِ مدارسِ اللغات بشكلٍ ما.

ومع التأثير الذي أحدثتْه أفكار دي سوسير في الدرس اللساني "أصبح ينظرُ إلى اللغةِ على أنّها موضوعُ معرفة

مستقلة قابلة للدراسةِ المنتظمة، بوصفها جملةً من الأحداثِ والوقائعِ المعقّدة على عكسِ ما تبدو عليه في واقعِها المادي الملموس، وأصبح هدفُ التحليل الوقوفَ على العلاقاتِ، والوظائفِ التي تجمعُ بين الوحداتِ المكوّنة للّغةِ في مختلفِ المستويات، بعيدًا عن العواملِ الخارجيةِ أيًّا كانتْ طبيعتها، وليس بحسبِ الطبيعة المادية، أو الخصائص التاريخية الفردية، والمتغيرة بالصدفة" (غلفان، ٢٠١٠م، ص٢٤٨)، وعليه لا يمكنُ تجاهل تأثيرُ أفكار دي سوسير في معظم المدارس اللسانية البنيوية اللاحقة، إذ كان لهم دوراً بارزاً في تطوّر البحث اللساني نحو آفاقٍ جديدة، مما أدى إلى اكتساب المنهج البنيوي المستمّد من اللسانياتِ قيمته في دراسة القضايا الإنسانية، وخاصة في أبعادها اللغوية (غلفان، ٢٠١٠م، ص٢٤٩، ٢٥٠).

ثالثاً: اللاشعورية الرمزية للّغة من فرويد إلى جاك لاكان

أولى (فرويد)[٢] عناية خاصة بمفهوم الرمز، وقد نسب اكتشافه إلى (شيرنر Schemer) وهو اهتمام مبكّر تجلّى منذ كتابه (دراسات في الهستيريا) (١٨٩٥)م، ففي هذا السياق، يميز فرويد بين الحتمية الترابطية للأعراض، والحتمية الرمزية لها؛ إذ يرى أن شلل (المريضة إليزابيث فون)، على سبيل المثال، يتحدد من جهة بارتباطه المباشر بسلسلة من الأحداث الصادمة، ومن جهة أخرى يرمز إلى ملامح أخلاقية مرتبطة بموقفها الوجودي. ومنذ تفسير الأحلام، يلفت فرويد النظر أيضاً إلى الأحلام النمطية ـــ كأحلام الطيران ـــ بوصفها تعبيرات رمزية مستقلة عن الخطاب الشخصي للحالم، أي عن لغته الشعورية الواعية، بل يشير إلى أن اللاشعور يوظّف في صياغة الحلم شبكةً من الرموز القائمة سلفاً، المستمدة من تراث إنساني مشترك يتجاوز حدود الفرد، ومن ثمّ، يصبح الرمز عند فرويد إحدى الأدوات الجوهرية التي يخرج عبرها الحلم إلى السطح، كاشفاً عن العلاقة العميقة بين التجربة الفردية والبنية الرمزية التي تؤطر الوجود الإنساني (طه، وآخرون، بلا ت، ص٢١٦).

ويرى فرويد أن الارتباط الثابت بين عنصر الحلم وما يقابله في عملية التأويل يُعرف بالعلاقة الرمزية، كما عدَّ أن عنصر الحلم ذاته يُمثّل رمزاً لفكرة شعورية كامنة،

---

[٢] سيغموند فرويد **Sigmund Freud** (١٨٦٥ ـــ ١٩٣٩)م: فيلسوف نمساوي، وطبيب وعالم نفس، درس الطب في جامعة فيينا، وواصل الدراسات العليا، فتخصّص في طب الأعصاب، وهو مؤسّس مدرسة (التحليل النفسي) والتي تعد من أشهر مدارس علم النفس الحديثة والمعاصرة، من أهم مؤلفاته: (تفسير الأحلام ـــ ثلاث مساهمات في النظرية الجنسية ـــ مقدمة عامة في التحليل النفسي). (خشبة، ٢٠٠٨م، ص٥٨٩، ٥٩٠).

موضحاً أن الصلة بين الرمز وما يُرمز إليه غالباً ما تتسم بالثبات والاستمرارية، بحيث تكشف عن انتظام داخلي في بنية الحلم يجعل من اللغة الرمزية وسيطاً أساسياً لفهم خبرة الإنسان اللا شعورية، لذ يمكن النظر إلى الحلم بوصفه فضاءً تتجلى فيه الرموز التي تمنح مضمونه قابليّة للتأويل، إذ لا حلم من دون مستدعيات تشكّل مادته الأولية، وقد عدَّ فرويد الرمز إحدى آليات التحريف في بنية الحلم، ما يفسر ضرورة العناية بالعلاقات الرمزية لفهم دلالاتها، ولأجل ذلك أضاف عام ١٩١٤م إلى كتابه تفسير الأحلام قسماً خاصاً بالتصوير الرمزي في الأحلام، وفي إطار التحليل النفسي الكلاسيكي، يرى العديد من المحللين أنّ العرض النفسي ليس سوى تعبير رمزي يجمع بين الرغبة ونقيضها، وأن اللغة الرمزية التي تظهر في الاضطرابات النفسية تتقاطع مع تلك التي نجدها في الأحلام، أو في الإبداعات الفنية، أو الأساطير والحكايات الشعبية، إنها لغة الإنسان الأولى، السابقة على تشكّل أنساق التفكير المنطقي، لغة (ما قبل التاريخ) التي تنطق بلسان الطفل والإنسان البدائي، وتكشف عن عمق الوجود الإنساني قبل أن يُؤطَّر في قوالب العقلانية الحديثة (طه، وآخرون، بلا ت، ص٢١٧).

بمعنى أن للأحلام معانٍ شخصية مستمدّة من لا شعور الشخص النائم أثناء الحلم؛ لأن في النوم تسترخي رقابة اللاشعور، فتصبح الأحلام تجسيدات (متخفية) للمخاوف والرغبات والهواجس غير الشعورية التي (يكبتها)[٣] الشعور في حالة اليقظة، فهو يرى بأنّ الأحلام هي الطريق المؤدي إلى اللاشعور بما يستعمله ألاعيب الحلم من تبدّلات وتحوّلات التصوّرات والصور المكثّفة والتمثيلات والرموز (خشبة، ٢٠٠٨م، ص٥٩٠).

في هذا السياق يكثر الحديث عن البنية اللغوية للظواهر النفسية؛ فإذا كان الحلم يُمثّل لغة النائم، فإن اللاشعور بدوره يُدرك كبنية لغوية تحمل مضموناً خاصاً، أشبه بنصّ يتطلّب قراءة دقيقة، ومن ثمّ يصبح اللاشعور نمطاً رمزياً علينا أن نكشف عن حروفه ونحوه الخاص، أي عن القواعد الداخلية التي تنظّم اشتغاله، بما يجعله قابلاً للفهم والتأويل كخطاب إنساني متخفٍ وراء الصور والرغبات، وهو جهد قام به (لاكان)[٤]

---

[٣] **الكبت**: هو عملية لا شعورية مقتضاها منع الميول والدوافع الكائنة في اللاشعور من أن تظهر في حيز الشعور، فبدل من أن يقوم صراع شعوري بين الرغبة والذات، يفر الذات فتظل الرغبة قائمة بكامل عنفوانها ولكن بعيداً عن متناول الشعور، والكبت هو صراع نفسي عجز (الأنا) عن مواجهته فتجاهله، فلاذ باعماق اللا شعور (الخازن، بلا ت، ص١٢٦).

[٤] **جاك لاكان Jaeques Lacan** (١٩٠١ ــ ١٩٨١)م: فيلسوف فرنسي، وطبيب وعالم تحليل نفسي، بدأ بالقاء المحاضرات في المدرسة العملية للدراسات العليا في عام ١٩٦٣م، نال الدكتوراة عن أطروحته الموسومة (في الذهان الهذائي من زاوية علاقاته الشخصية)، ثم أسّس مدرسته الخاصة في علم التحليل النفسي، إذ تناول ذلك العلم

عندما اتجه إلى إعادة تشييد أُسس التحليل النفسي ضمن أُفقٍ بنيوي، كان يسعى إلى نقل هذا الحقل من مستوى الممارسة التفسيرية الفردية إلى فضاء أكثر عمقاً يبرز فيه البعد الرمزي واللغوي بوصفهما الركيزة التي يتشكّل من خلالها الوجود الإنساني، فبيّن بأنّ اللغة تتكلّم الذات الإنسانية من خلال اللاشعور، فاللاشعور ليس مجرّد مخزون صامت للرغبات والدوافع، بل هو خطاب موجّه إلى الآخر، وموضوع ينطق بلغته الخاصة، ما يستدعي التعامل معه كنص مشفّر ينبغي علينا فك رموزه، وتأويل دلالاته، لنعبر من خلاله إلى عمق التجربة الإنسانية (Lacan, 1971, P233). فاللاشعور بتعبير لاكان مبنين مثل اللغة (هالند، ٢٠٠٩م، ص٥١). وهنا يعترف لأكان باستعماله للمعطيات اللسانية في تحليلاته لتشكّلات اللاشعور خاصةً، والتحليل النفسي عامةً، "فهو يرى أنّ الإنسان هو نتاج للّغة باعتبار أنّ ما يعين الوجود البشري تعييناً أحسن من غيره، هو أنّ الفرد يظهر ضمن عالم يوجد فيه شيء ما وجوداً دائماً وقبلياً، أي توجد فيه اللغة" (شملا، ١٩٨٨م، ص١٠).

وأقام لأكان تصوّراً جديداً عن اللاشعور الفردي لدى الإنسان بحيث يجعل من اللاشعور الذي لم يحدّد له فرويد أيّة مكونات ملموسة، يتكوّن منها لغة يتلقّاها ويكوّنها الرضيع من مجموعة مترابطة أو غير مترابطة من المجازات، والكنايات، وبذلك تقترب لغة الرضيع، وتصوّراته المرتسمة في ذهنه عن العالم المسموع، والمرئي، والمحسوس، من لغة الإبداع الفني، ومن تصوّرات الفنانين، إلّا أن هذا الإبداع اللغوي لدى الرضيع سرعان ما يصطدم بما يتلقّاه من اللغة التي يتلقّاها من الكبار، وهي لغة علمية، وصفية، وإشارية محدّدة تعبّر عن معانٍ، ورغبات، وأشياء قاطعة، هي التي يتكوّن منها الشعور من جهة، وهي التي تدخل الطفل إلى المجتمع، وإلى شبكة العلاقات الإجتماعية من جهة أخرى، غير أنّها في علاقتها باللغة السابقة (اللاشعور) تتضمّن، وتؤدي إلى اثارة مشاعر بخسارة شيء ثمين لا يعوّض، وبالفقدان والغياب والاختلاف، وبما أنّ الأب غالباً ـــ هو الذي يعبّر عن السلطة والنظام والإلتزام ـــ فيكون هو رمز هذه اللغة الجديدة (خشبة، ٢٠٠٨م، ص٧١٠، ٧١١). أي أنّ اللغة في البداية تكون غريبة بالمعنى الحرفي، تماماً كما في استطاعة المرء أن يخسر هذه الآخرية العميقة للّغة عندما يسافر إلى دولة أجنبية غريبة عنه، بحيث لا تكون هناك كلمة واحدة من لغة بلاده، فهي تشير إلى عجز الطفل بالنسبة لما سوف يكون فيما بعد لغته الأصلية، فاللغة هي قبل كل شيء

على أساس فلسفي، ومن أهم مؤلفاته: (كتابات ـــ اللغة الخيال الرمزي) (الموسوي ، ٢٠١٥م ، ص٢٨٨).

فاللاشعور عند لأكان يعني خطاب الآخر، الذي يقوم كقيام اللغة من ناحية البناء (الموسوي، ج٣، ٢٠١٥م، ص٢٨٩).

وقدّم لاكان النسيج الأساسي للبنية اللغوية من خلال تمييزه بين ثلاث مجالات وهي: الرمزي، والخيالي، والواقعي (ايفانس، ٢٠١٦م، ص٤٦). مستمدّاً ذلك من خلال قراءته للتركيبات التي أدخلها فرويد في بنية الشخصية وهي: الهو، والأنا، والأنا الأعلى، والتي تقابل مستويات الوعي التي قسمها فرويد في بنية الشخصية وهي: الشعور، ما قبل الشعور، اللا شعور (كليمان، ٢٠٠٤م، ص١١٣، ١١٤). ففي المجال الرمزي، ينظر لاكان إلى الظواهر التي يعالجها التحليل النفسي بوصفها بنيات لغوية في جوهرها؛ فاللاشعور، على سبيل المثال، لا يُفهم إلا كلغة تعبّر عن صوت (الهو) الكامن في الإنسان، ومن هذا المنظور، فإن القيمة الحقيقية لاكتشاف فرويد ــ حسب لاكان ــ تكمن في إماطة اللثام عن النظام الرمزي الذي يحتضن الذات ويشكّلها، وهو النظام الذي لا بدّ من تفكيك رموزه وفك شفراته، وهكذا يغدو الإنسان، في جوهر وجوده، نتاجاً للرمزي، يعيش ويتحرك في فضاء من العلامات التي تمنحه هويته وتؤطر علاقته بذاته وبالآخر، وهكذا نجد أنّ لاكان يهتم بابراز دور الرمزية في صميم الحياة النفسية للفرد، بل في صميم التفكير العلمي للبشرية قاطبة، فهو يرى بأنّه لم يقم لدى الإنسان عبر العصور تفكير آخر سوى التفكير الرمزي، وأنّ الرياضيات، أو ما نسميه اللغة الجارية، تمثّل أعلى صورة من صور الرمزية في نطاق التفكير العلمي (ابراهيم، بلا ت، ص١٨٠)، وبما أنّ مفاهيم القانون والبنية لا يمكن تصورهما بدون لغة، فإن الرمز هو في الأساس مجال لغوي، لذا فإنّ أي جانب من جوانب تجربة التحليل النفسي التي لها بنية لغوية تتعلق بالترتيب الرمزي، فالمجال الرمزي للّغة هو المجال المميّز، إذْ لا يكون فيه للعناصر وجوداً إيجابياً، كما أنّ الرمز هو عالم التغيير الجذري الذي يشير إليه لاكان بـ (الآخر)، واللاشعور هو خطاب هذا الآخر، وبالتالي ينتمي كلياً إلى الترتيب الرمزي، والمجال الرمزي هو أيضاً عالم الموت، والغياب، والنقص... إلخ (P203، 1996، Evans).

وتجدر الإشارة إلى أن الفارق الجوهري يتبدّى بين مفهوم الرمزية عند فرويد ودلالاتها عند لاكان في طبيعة العلاقة بين الرمز وما يشير إليه، فبينما يؤكّد فرويد على الترابط المباشر بين الرمز وما يدلّ عليه– مهما بلغت تعقيداته وتشابكاته– ينقلنا لاكان إلى أفق آخر يجعل من النسق الرمزي نقطة الانطلاق الأولى، فالعلاقة بالمرموز إليه، سواء أكانت قائمة على التشابه أو المماثلة، تأتي في مقام تالٍ تغذّيه طاقة الخيال، ومن هذا

المنظور يرى لاكان أن الإنسان كائن رمزي بالضرورة، يولد في نظام مسبق لا يتيح إمكانية تثبيت علاقة جامدة بين الدال والمدلول، وهنا يظهر الأثر البالغ لفكر (كلود ليفي شتراوس) في تكوين رؤية لاكان؛ إذ قدّم شتراوس للفكر الاجتماعي مفهوم النسق الرمزي متأثراً بالبنيوية اللغوية المستمدّة من دي سوسير، ثم طوّره ووسّع مجاله ليطبّقه في ميدان الأنثروبولوجيا، وبهذا أصبح ممكناً النظر إلى الثقافة الإنسانية بوصفها شبكة متداخلة من الأنساق الرمزية، تتصدرها اللغة، لتتبعها أنساق القرابة، والأنظمة الاقتصادية، والفن، والعلم، والدين. إنّ هذا التداخل بين التحليل النفسي والفكر البنيوي يبرز كيف يتجسّد الوجود الإنساني في فضاء من الرموز، إذ تصبح اللغة والقوانين الثقافية جسوراً لفهم الذات والآخر معاً (طه، وآخرون، بلا ت، ص٢١٦).

أما المجال الخيالي، فهو يُعنى بالعلاقة القائمة بين الذات والآخر، وهي في الأساس علاقة عدائية، أي منذ بدايتها، تنشأ العلاقة محمّلة بظلال العداء الذي يرسّخه الخيال عبر صورٍ أولية عن الآخر، فيجعل الصراع جزءاً من بنيتها التأسيسية، غير أنّ هذا التوتر لا يبلغ نضجه الإنساني إلا حين تتدخل اللغة؛ فهي التي تفتح المجال لتجاوز منطق الصدام نحو أفق أرحب من الفهم والتأويل، وبذلك تتحول اللغة من مجرد وسيلة للتواصل إلى فعل تأسيسي يعيد تشكيل العلاقة، فتغدو اللقاءات مع الآخر سبيلاً للحوار والتقارب، لا مجرد استعادة لصراع خيالي متجذّر (ايفانس، ٢٠١٦م، ص٤٦)، ويتضمن أيضاً أيحاءات عديدة: كالخداع، والفتنة، والإغواء...إلخ، والأوهام الرئيسة في هذا المجال هي: الكلية، والإستقلال، والتجمّع أو النظام، والتشابه، والثنائيات...إلخ، ومن هنا نستطيع القول بأنّ المجال الخيالي هو البنية العميقة التي تختفي وراء ما هو سطحي، وظاهري خادع، فهو إذن النظام الكامن وراء هذه الأشياء الظاهرية الخادعة ((P112، 1996، Evans).

أما المجال الواقعي، فقد أضافه لاكن إلى الرمزي والخيالي، وهو شيء أعاد صياغته من لحظات متعددة في عمله، إذ كان الواقعي عام ١٩٥٣م هو ببساطة ما ليس رمزياً، بل ــ حسب لاكان ــ ما يقاوم الرمزية مقاومة مطلقة (ليدر وجروفز، ٢٠٠٣م، ص٦٧)، وهو عكس المجالين السابقين، إذْ يربطه لاكان بمفهوم الاستحالة، فالواقعي من المستحيل اندماجه في النظام الرمزي، كذلك من المستحيل تخيله (P162، 1996، Evans).

وخير مثال على هذه المجالات الثلاثة هو قولنا: (أسد) فهذه الكلمة تشكل اللفظ الرمزي، إنّ استدعاء صورة الحيوان المفترس يقوم على فعلٍ تخييلي يمنح

اللغة طاقتها الرمزية؛ فالتصور الذهني للأسد، بما يحمله من دلالات القوة ، يتجلى في المجال الخيالي قبل أن يحضر ككائن واقعي، ومن ثمّ فإنّ الخطاب يستحضر صورة الأسد ويُدخلها في دائرة المعنى دون حاجة إلى وجوده الجسدي الفعلي، بل إنّ الفرد قد لا يكون قد رأى أسداً في حياته قط، ومع ذلك يتفاعل مع رمزيته المتشكّلة عبر تداخل أبعاده الثلاثة: الرمزي، الخيالي، والواقعي، وهكذا يُسهم هذا التداخل في منح الكلام معناه، ويجعلنا قادرين على التواصل مع الآخر عبر وسيط لغوي يجمع بين التجربة الإنسانية والبعد الرمزي للوجود (ايفانس، ٢٠١٦م، ص٤٦).

الخاتمة:

لقد سعى هذا البحث إلى استجلاء العلاقة بين مفهوم اللاشعور، ومفهوم البنية الرمزية في اللسانيات البنيوية، فاللغة ليست مجرد وسيلة للتواصل فحسب، بل هي نسق رمزي يكشف عن عمق التجربة الإنسانية، وأنّ اللاشعور لا ينفصل عن هذا النسق، بل يتجلّى من خلاله، بما يحمله من دلالات ورموز مكبوتة أو لا شعورية.

ان التلاقي بين التحليل النفسي واللسانيات البنيوية يكشف عن وحدة عميقة بين البنية الرمزية للغة وبين التشكّل النفسي للذات، مما يجعل اللغة فضاءً كاشفاً عن أبعاد وجودية ومعرفية في آن واحد، وبذلك يمكن القول إنّ دراسة الرموز واللاشعور لا تقف عند حدود التحليل النفسي، بل تمتد إلى مجالات أوسع تشمل فلسفة اللغة واللسانيات، وعلم الاجتماع، لتؤكد أنّ الإنسان في جوهره كائن رمزي لا يفهم ذاته ولا يعبّر عن وجوده إلا من خلال اللغة.

ويمكن تلخيص أبرز النتائج في هذا البحث:

١ــ إن مضمون فكرة البنية محدّدة بكونها لاشعورية رمزية، بمعنى أنّها مخزونة في أعماق الإنسان.

٢ــ إنّ أي كلمة في اللغة هي رمز، وإنّ اللغة تعمل بوصفها نظاماً من الرموز.

٣ــ يؤكد دي سوسير أنّ اللغة (أية لغة) هي ثابتة (سكونية)، وأن هذا الثبات يجعل اللغة ممكنة، لذا فاللغة بنية لا تؤدي وظيفتها إلّا بمقتضى طبيعتها الرمزية.

٤ــ يعد اللاشعور عند فرويد جوهراً له حياته الخاصة، مستقلّاً عن الشعور، ويعد التحليل النفسي تأمّلاً فكرياً تنحصر وظيفته الرئيسة في الكشف عن أسرار مظاهر السلوك الصادرة بوحي من هذا اللاشعور.

٥ــ إنّ فلسفة جاك لاكان قائمة من خلال العلاقة المتبادلة بين اللاشعور بكونه خطاب الآخر، واللاشعور بكونه منتظم بنيوياً على هيأة لغة، لذا يؤكد بأنّ

اللاشعور نسقٌ يتكوّن من شبكة من الدلالات، فاللاشعور بكونه لغة هو بنية.

المصادر والمراجع:

أولاً: باللغة العربية

١ـ ابراهيم، زكريا، بلا ت، سلسلة مشكلات فلسفية: مشكلة البنية، الفجالة، مصر، مكتبة مصر، بلا ط.

٢ـ استيتية، سمير شريف، ٢٠٠٨م، اللسانيات المجال والوظيفة والمنهج، إربد، الأردن، عالم الكتب الحديث للنشر والتوزيع، ط٢.

٣ـ إفيتش، ميلكا، ٢٠٠٠م، اتجاهات البحث اللساني، تر: سعد عبدالعزيز مصلوح ـــ وفاء كامل فايد، القاهرة، مصر، المشروع القومي للترجمة، بلا ط.

٤ـــ أورو، سليفان، ٢٠١٠م، فلسفة اللغة، تر: عبدالمجيد جحفة، بيروت، لبنان، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١.

٥ـ أوكان، عمر، ٢٠١١م، اللغة والخطاب، القاهرة، مصر، رؤية للنشر والتوزيع، ط١.

٦ـ ايفانس، ديلان، ٢٠١٦م، قاموس لاكان التمهيدي في التحليل النفسي، تر: محمد احمد محمود خطاب، دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع، ط١.

٧ـــ بغوره، الزواوي، ٢٠٠٢م، البنيوية منهج أم محتوى، الكويت، مجلّة عالم الفكر، العدد: ٤، المجلّد: ٣٠.

٨ـ بوجادي، خليفة، ٢٠٠٩م، في اللسانيات التداولية (مع محاولة تأصيلية في الدرس العربي القديم)، الجزائر، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، ط١.

٩ـــ الجهني، مانع بن حماد، ١٤١٨هـ، الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب والأحزاب المعاصرة، م١، الرياض، السعودية، دار الندوة العالمية للطباعة والنشر والتوزيع، ط٣.

١٠ـ حسان، تمام، ١٩٨٤م، اللغة العربية والحداثة، القاهرة، مصر، فصول مجلة النقد الأدبي، العدد: ٣، المجلد: ٤.

١١ـ الخازن، منير وهيبة، بلا ت، معجم مصطلحات علم النفس، دار النشر للجامعيين، بلا ط.

١٢ـــ خشبة، سامي، ٢٠٠٨م، مفكرون من عصرنا، القارهة، مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، بلا ط.

١٣ـ دي سوسير، فيرديناند، ١٩٨٥م، علم اللغة العام، تر: يوئيل يوسف عزيز، بغداد، العراق، سلسلة دار آفاق عربية، ط١.

١٤ـ دي سوسير، فيرديناند، ١٩٨٥م، فصول في علم اللغة العام، تر: أحمد نعيم الكراعين، الإسكندرية، مصر، دار المعرفة الجامعية،الإسكندرية، ط١.

١٥ـ روزنتال وآخرون، بلا ت، الموسوعة الفلسفية، تر: سمير كرم، بيروت، لبنان، دار الطليعة للطباعة والنشر، بلا ط.

١٦ــ زواوي، مختار، ٢٠١٧م، دو سوسير من جديد (مدخل إلى اللسانيات)، الجزائر، ابن النديم للنشر والتوزيع، ط١.

١٧ـ سعيد، جلال الدين، ٢٠٠٤م، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، تونس، دار الجنوب للنشر، بلا ط.

١٨ــ شملا، فيليب، نوفمبر ١٩٨٨م، لاكان واللغة، المغرب، مجلة بيت الحكمة، العدد: ٨.

١٩ــ شنوقة، السعيد، ٢٠٠٨م، مدخل إلى المدراس اللسانية، القاهرة، مصر المكتبة الأزهرية للتراث، ط١.

٢٠ـ شولز، روبرت، ١٩٨٤م، البنيوية في الأدب، تر: حنا عبود، منشورات إتحاد الكتّاب العرب، بلا ط.

٢١ـ شيفلر، إسرائيل، ٢٠١٦م، العوالم الرمزية: الفن والعلم واللغة والطقوس، تر: عبدالمقصود عبدالكريم، القاهرة، مصر، المركز القومي للترجمة، ط١.

٢٢ـ طه، فرج عبدالقادر، وآخرون، بلا ت، معجم علم النفس والتحليل النفسي، بيروت، لبنان، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، ط١.

٢٣ـ ظاهر، عمر، ٢٠٠٨م، تأملات في فلسفة اللغة: خصوصية اللغة العربية وإمكاناتها، بيروت، لبنان، دار الرافدين للطباعة والنشر والتوزيع، ط١.

٢٤ـ عاتي، حسن كريم، ٢٠١٥م، الرمز في الخطاب الأدبي، بغداد، العراق، الروسم للصحافة والنشر والتوزيع، ط١.

٢٥ـ العزاوي، نعمة رحيم، ٢٠٠١م، مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة، منشورات المجمع العلمي، بلا ط.

٢٦ـ علوش، سعيد، ١٩٨٥م، معجم المصطلحات الأدبية المعاصرة، بيروت، لبنان، دار الكتاب اللبناني، ط١.

٢٧ــ غلفان، مصطفى، ٢٠١٣م، اللسانيات البنيوية منهجيات واتجاهات، بيروت، لبنان، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط١.

٢٨ـ غلفان، مصطفى، ٢٠١٠م، في اللسانيات العامة: تاريخها، طبيعتها، موضوعها، مفاهيمها، بيروت، لبنان، دار الكتاب الجديد المتّحدة، ط١.

٢٩ـ كامل، وفاء محمد، أكتوبر ١٩٩٧م، البنيوية في اللسانيات، الكويت، مجلة عالم الفكر، العدد: ٢، المجلد: ٢٦.

٣٠ـ كريزويل، إديث، ١٩٩٣م، عصر البنيوية، تر: جابر عصفور، الكويت، دار سعاد الصباح، ط١.

٣١ـ كلارك، سايمون، ٢٠١٥م، أسس البنيوية (نقد ليفي شتراوس والحركة البنيوية)، تر: سعيد العليمي، القاهرة، مصر، المركز القومي للترجمة، ط١.

٣٢ــ كليمان، كاترين، ٢٠٠٤م، التحليل النفسي، الكتاب: ١، ترجمة: محمد سبيلا وحسن أحجيج، الدار البيضاء، المغرب، مطبعة النجاح الجديدة، بلا ط.

٣٣ـ ليدر، داريان وجودي جروفز، ٢٠٠٣م، سلسلة أقدم لك (لاكان)، تر: إمام عبدالفتاح إمام، القاهرة، مصر، المشروع القومي للترجمة، ط١.

٣٤ــ المتوكل، احمد، ٢٠١٠م، اللسانيات الوظيفية (مدخل نظري)، بيروت، لبنان، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط٢.

٣٥ــ الموسوي، ابو رغيف رحيم، ٢٠١٥م، الدليل الفلسفي الشامل، ج٣، بيروت، لبنان، دار المحجة البيضاء للطباعة والنشر والتوزيع، ط١.

٣٦ـ الناصر، عمارة، ٢٠٠٧م، اللغة والتأويل (مقاربات في الهرمينوطيقا الغربية والتأويل العربي الإسلامي)، الجزائر، منشورات الإختلاف، ط١.

٣٧ـ هالند، ريتشرد، ٢٠٠٩م، ما فوق البنيوية: فلسفة البنيوية وما بعدها، تر: لحسن أحمامة، ، اللاذقية، سوريا، دار الحوار للنشر والتوزيع ، ط٢.

٣٨ـ وهبة، مراد، ٢٠٠٧م، المعجم الفلسفي، القاهرة، مصر، دار قباء الحديثة للطباعة والنشر، طه.

٣٩ـ ياكوبسن، رومان، ٢٠٠٢م، الاتجاهات الأساسية في علم اللّغة، تر: علي حاكم صالح وحسن ناظم، الدار البيضاء، المغرب، المركز الثقافي العربي، ط١.

٤٠ــ يعقوبي، محمود، ١٩٩٨م، معجم الفلسفة اهم المصطلحات وأشهر الأعلام، الميزان للنشر والتوزيع، ط٢.

ثانياً: باللغات الأجنبية

1) Cassirer, Ernst, 1955, The Philosophy of Symbolic Form, volume 1, tran: Ralph Manheim, new haven, London, Yale University press.

2) Evans, Dylan ,1996, Dictionary of Lacanian Psychoanalysis, Routledge, London and New York.

3) Haar, Michel, n.d, Introduction A la Psychanalyse Freud, Analyse critique, Universite de Paris, Sorbonne.

4) Lacan, Jacques, 1971, Ecrits, volume 2, Edition du seuil.

5) Ree, Jonathan and Urmson, J O, 2005, The Concisc Encyclopedia Of Western

Philosophy Routledge Taylor Francis Group, London.